

الفكر اللساني الإغريقي

سقراط : حول الأسماء

روي هاريس Roy Harris

تالبوت جي تايلور Talbot J. Taylor

ترجمة: باقر جاسم محمد

هيرموجينز: ها هو سقراط ؛ هل نجعله شريكاً في مناظرتنا؟
كراتيلوس: إذا كانت تلك رغبتك.

هيرموجينز: إن كراتيلوس ، وهو من تراه هنا يا سقراط ، يقول إن لكل شيء اسماً مناسباً خاصاً به، وهو ما منحتة إياه الطبيعة؛ فليس الاسم هو ما يطلقه الناس بالتواضع و العرف. إنه ليس سوى بعض من أصواتهم مخصص للشيء [المسمى]، و لكن هنالك نوع من الصحة و المطابقة المتأصلة في الأسماء. و هو أمر صحيح لكل الناس سواء أكانوا إغريقيين أو من البرابرة. و لقد سألته إن كان اسمه هو، أي كراتيلوس، حقا فوافق على أن اسمه كذلك. "و ما اسم سقراط؟" قلت له؛ فأجاب: "سقراط". لذلك هل يمكن القول أن ذلك ينطبق على كل الناس و إن الاسم المخصص الذي ندعو به كل شخص إنما هو اسمه؟ وقد قال "حسناً، إن اسمك ليس هيرموجينز ، حتى وإن ناداك كل الناس بهذا الاسم.

كراتيلوس (ص ٣٨٣)

هكذا يبدأ أقدم تسجيل لأية مناظرة مطولة حول القضايا اللسانية الخلاقية التي لبثت حية في الأدبيات الغربية. و مثل كل محاورات أفلاطون فأن محاوره كراتيلوس تقدم مناظرة أعيد بناؤها خيالياً بين سقراط و محاوريه حول موضوع ذي أهمية للإغريقيين في أواخر القرن الخامس و أوائل القرن الرابع قبل الميلاد. و في هذه الحالة، تقدم لنا المحاوره سقراط في حالة مناظرة حول "صحة الأسماء و ملاءمتها لما تسميه" مع محاورين اثنين هما هيرموجينز و كراتيلوس. إن هيرموجينز من أتباع الفيلسوف بارمنيدس. أما كراتيلوس فهو فيلسوف وصل به الأمر، كما

تروي الحكاية الخرافية، إلى عدم الثقة باللغة إلى الحد الذي تخلى فيه، في نهاية المطاف، عن استخدام الكلام كلياً، و التواصل مع الآخرين بوساطة الإشارات فحسب.

لقد ولد أفلاطون (٤٢٧-٣٤٧ ق.م) و ترعرع خلال فترة الثلاثين عاماً التي استغرقتها الحرب البلوبونيزية التي انتصرت في خاتمتها إسبارطة على أثينا؛ كما أن الديمقراطية الأثينية قد وضعت على محك التجربة بوصفها صيغة فاعلة للحكم. و قد أثرت هذه الظروف السياسية في تشكيل حياة أفلاطون و عمله بثلاثة طرق: (١) فهي قد أدت إلى موت أستاذه المبدع سقراط الذي أدين في العام ٣٩٩ ق.م لوجهات نظره الهدامة، و ذلك بحكم أصدره القادة الديمقراطيون الذين كانوا في السلطة في حينه؛ و (٢) و كانت المناسبة التي دفعت أفلاطون إلى أن يختار المنفى بعيداً عن أثينا لمدة اثني عشر عاماً، و قد عاد إلى أثينا في العام ٣٨٧ ق.م؛ و (٣) لكونها قد ألهمته رفض الديمقراطية و البحث العقلي عن الشكل الأمثل للحكم و للسلوك الشخصي. و عند عودته إلى أثينا قام أفلاطون بتأسيس مدرسته الأكاديمية خاصة، و قد ألقى محاضراته هناك فيما بقي من حياته العلمية. و بوصفه أول فيلسوف بقيت كل كتاباته حية، و بوصفه المصدر الأساس لمعرفتنا بتعاليم سقراط، و بطرقه في الحجاج العقلي، و بوصفه معلماً لأرسطو، فإن لأفلاطون ثلاثة استحقاقات لدى المؤرخين. و كل واحد من هذه الاستحقاقات يضمن له مكانة متفردة في تطور الفكر الغربي. ففي محاورات أفلاطون، الخيالية ظاهراً، التي بلغت ذروتها في "الجمهورية" و "النواميس" يبدو سقراط في العادة بوصفه الناطق بوجهات نظر أفلاطون الخاصة. أما إلى أي مدى تتطابق وجهات النظر هذه في تفاصيلها مع تعاليم سقراط، الشخص التاريخي، فإن من الصعب تقرير ذلك بأية درجة من درجات الدقة. كما انه ليس من المعروف في أية مرحلة من مراحل عمل أفلاطون تمت كتابة محاوره كراتيلوس.

و لا يتضح السبب في كون كراتيلوس و هيرموجينز مهتمين بمدى صحة الأسماء و ملاءمتها إلا بعد أن تبسط المناقشة وجهتي النظر. و لمتابعة ذلك يجب تقويم نقطتين عامتين تخصان: (١) التوريات الإغريقية، و (٢) أقسام الكلام الإغريقية. و توضيح ذلك على النحو الآتي:

(١) تختلف الثقافات في مواقفها إزاء اللعب بالكلمات. و إن الابتهاج الإغريقي المبكر باللعب بالكلمات سوف يصدم أي قارئ معتاد على أنماط التربية الغربية. فهي أما متأصلة في الشرق إلى حد ما أو يافعة إلى حد ما. إن السخرية من أسماء الناس أمر يفتقر إلى حسن الذوق (على

الرغم من أنه، قبل بضعة أجيال كان كتاب من منزلة ديكنز منغمسين فيه)^[١] فالسخرية من شخص طويل صادف أن اسمه (Short)، أي قصير ، أو لوم شخص خال من الفطنة و كان اسمه (Brigh) ، أي ذكي ، تعد في هذه الأيام دلالة على الافتقار للذوق ، لكن التعبيرات الابتدائية الساخرة لكراتيلوس تقع في هذا الباب.^[٢]

إن الزعم القائل بأنه ليس من الصحيح مناداة هيرموجينز باسم هيرموجينز قد استند إلى حقيقة أن هذا الاسم يعني لدى الإغريق مولود "من صلب هيرمس"^[٣] و هيرمس إله إغريقي كان يعد راعياً لرجال الأعمال و التجار و الصيارفة، و من هنا فإن المعنى الضمني هو أن المرء يتوقع لمن يحمل اسم هيرموجينز أن يكون ذا حظوة في مجال القضايا المالية. و من الواضح إن ذلك لم يكن حال الشخص الذي يحاوره كراتيلوس. ذلك أن هيرموجينز هذا، الذي كانت مغامراته المالية تبوء بالفشل دائماً ، قد أعطي الاسم الخطأ. فهو إذن ليس الابن الحقيقي لهيرمس. و هذه السخرية الهينة من اسم هيرموجينز تبدو نقطة انطلاق صائبة تماماً لمناقشة جدية في طبيعة اللغة. و لكن غرضها الوحيد هنا هو أن تؤدي إلى إثارة ملاحظ ناشئة عن تفكير عميق حول ما إذا كان هنالك أي معنى للقول أن الأسماء (ملائمة) أو (غير ملائمة) لمسمياتها. و هي مسألة ما زالت تشغل بال الكثير من الآباء و الأمهات في الوقت الحاضر عندما يختارون أسماء لأطفالهم. و هو ما يضمن مبيعات ثابتة للكتب التي تزعم أنها توضح معاني أسماء بعينها من مثل جون أو ماري أو أليس... الخ. إن المعتقد الشائع بأن للأسماء معاني مغلوبة تماماً منتشر في كثير من الحضارات. و من ناحية أخرى، فإذا كان للأسماء معاني حقاً فإنه يبدو معقولاً أن نتوقع أن معانيها يجب أن تكون على العكس من الشخص أو الشيء المسمى.^[٤] وإذا كانت هناك أسماء لها معانٍ وأخرى ليس لها معانٍ فإنه لن يكون عبثاً أن نبحث لماذا كان الأمر كذلك.

(٢) عند قراءة محاوراة أفلاطون، يجب أن نضع نصب أعيننا أن المصطلح الذي يترجم في الإنجليزية عادة بـ 'الاسم' (onoma) يغطي ليس فقط أسماء العلم (proper names) من مثل هيرموجنز و سقراط ولكن ما يصنف في هذه الأيام تحت (الاسم العام) (common name) من مثل رجل، حصان، ... الخ.

وعلاوة على، ذلك فإن كلمة (onoma) كانت تستعمل أحياناً في الإغريقية بوصفها مصطلحاً عاماً لمصطلح كلمة (word). وفي كل الأحوال فإنه لم يكن ثمة تمييز تصنيفي نظامي بين الاسم الصحيح و الاسم العام في الوقت الذي كان فيه أفلاطون يلقي دروسه في أثينا. و يبدو

أن أفلاطون نفسه قد ميز اثنين نقط من أجزاء الكلام ؛ أحدهما الأسماء (names) و الآخر هو ما يترجم عادة بالأفعال أو الأخبار (rhemata). لذا فإن مسألة فيما إذا كان هيرموجينز يدعى على نحو صحيح باسم هيرموجينز قد عولجت على أساس كونها، من حيث المبدأ، لا تختلف عن مسألة فيما إذا كان الماء، مثلاً، يسمى على نحو صحيح باسم الماء أو أن الذهب يدعى عن حق ذهباً. فكل الأسماء من هذه الناحية كانت على قدم المساواة.

إن هيرموجينز يوضح موقفه الخاص في المناقشة على النحو الآتي:

"بالنسبة لدوري، يا سقراط، لقد تحدثت غالباً مع كراتيلوس و كثير من الآخرين، و لم أستطع أن أصل إلى حكم نهائي بأن هنالك أي تلاؤم بين الأسماء ومسمياتها يتجاوز العرف والاتفاق. لأنه يبدو لي أنه مهما كان الاسم الذي تطلقه على الشيء فإنه هو الاسم الصحيح المناسب له، وإذا ما أقلعت عن إطلاق ذلك الاسم عليه وغيرته إلى اسم آخر، فإن الاسم الأخير لن يكون أقل ملائمة من الاسم الأول، تماماً كما نغير أسماء خدمنا، لأنني أعتقد أنه ليس ثمة من اسم يعود إلى شيء بعينه بالطبيعة، ولكن فقط بوساطة العادة و التقليد لأولئك الذين يستخدمونه والذين أرسو استخدامه."

كراتيلوس (ص ٣٨٤)

إن تلميذ هيرموجينز إلى الخدم يذكرنا بأن أثينا في زمن أفلاطون قد كانت مجتمعا تسوده العبودية. و قد كانت عادة إغريقية شائعة أن يعطى العبيد أسماء جديدة عندما يدخلون في خدمة سيد جديد. و من الممتع هنا أن هيرموجينز يورد هذه الممارسة الاجتماعية ليس بوصفها دليلاً له صلة بموضوع المناقشة، وإنما هو يوردها على أنها أنموذج يكشف على نحو أكثر وضوحاً من أي شيء آخر عن الطبيعة الاصطلاحية المحضة للأسماء. إن تفكيره الضمني هو كالاتي: إذا لم تكن الأسماء اصطلاحية محضة فكيف يتسنى لي أن أغير أسم عبد ما بوساطة مجرد قرار اعتباطي؟ إن حقيقة كوننا قادرين على فعل ذلك تظهر أن الأسماء في خاتمة المطاف تتحدد بواسطة نزوة الأفراد.

إن سقراط لا يوافق على ذلك وإسهامه الأول في المناقشة هو مهاجمة الأطروحة القائلة أن الأسماء تمنح أو تغير بوساطة فعل الإرادة الفردية. ولقد كانت إستراتيجية المناظرة التي اختارها سقراط ممتعة، فهو لا يشير على هيرموجينز إلى أن تغيير أسماء العبيد حالة استثنائية وجانبية،

كما أنه لا يشير إلى أن هيرموجينز لا يملك حرية تغيير أسماء من مثل الماء والذهب. وبدلاً من ذلك يؤثر جدلاً أكثر تعقيداً وقوة:

"سقراط: قد تكون على حق يا هيرموجينز، ولكن دعنا نرى إن كان أي اسم نقرر إعطاؤه لشيء بعينه هو اسمه.
هيرموجينز: نعم.

سقراط: سواء كان واهب الاسم شخصاً مفرداً أو طبقة اجتماعية.
هيرموجينز: نعم.

سقراط: حسناً إذن، أفترض أنني إذا أعطيت اسماً لشيء ما أو سواه، مسمىاً، على سبيل المثال، ما ندعوه الآن بالرجل حصاناً، وما ندعوه الآن بالحصان رجلاً، فهل سيكون الاسم الحقيقي للشيء نفسه هو رجل بالنسبة للعامة وحصان بالنسبة لي شخصياً، وفي الحالة الثانية سيكون الاسم هو حصان بالنسبة للعامة ورجل بالنسبة لي شخصياً؟ أهذا هو المعنى الذي أردته؟
هيرموجينز: نعم، تلك هي فكرتي.

سقراط: والآن أجب عن هذا السؤال. هل ثمة أي شيء مما يمكن أن تقول عنه أنه يتحدث بالحقيقة والزيف في آن معاً؟"

و يوافق هيرموجينز على أنه يوجد مثل هذا الشيء. وهو بذلك يغلق الفخ الذي وضعه له سقراط بعناية. إن الدفع المتضمن في سؤال سقراط هو في الإشارة إلى أن النظرية الإرادية للأسماء 'Volitional Theory' التي يناصرها هيرموجينز تؤدي مباشرة إلى استنتاج يتعارض مع الفطرة السليمة لأنها تثبت و تدعم الإقرار بوجود لغات عديدة شخصية يماثل عددها عدد الأفراد.^[5]

إن هذا التصور، و لأمر واحد فقط، يجعل من فهمنا الاعتيادي للفرق بين الحقيقة والزيف عديم المعنى. فالمعتاد، حين يقول شخص ما (إن للحصان أربع أرجل) فإننا نعد هذا القول صادقاً. و لكن إذا ما كان علينا تصديق هيرموجينز فإننا سنكون على الخطأ لأننا نعلم جميعاً أن المتحدث ربما كان يتكلم لغة خاصة تكون فيها كلمة حصان اسماً لما ندعوه بالرجل. وبناءً على ذلك فإن القول ((للحصان أربع أرجل)) ستكون زائفة. والآن فإننا ما إن نقر أن كلمة حصان يمكن أن تعني رجلاً، أو أن سقراط يمكن أن يكون اسماً لهيرموجينز فإن اللغة كما

نفهمها عادة سنتحلل تماماً ، و لن يكون باستطاعتنا أن نحكم فيما إذا كانت عبارات من مثل (للحصان أربع أرجل) أو (سقراط متزوج من كزانيب) هي عبارات صحيحة أم زائفة. والأكثر سوءاً أنه حتى كيفية تداولنا للغة، مع تأسيس صحة أو زيف مثل هذه العبارات، ستغدو أمراً غير واضح إذا ما كانت نظرية هيرموجينز في الأسماء سليمة.

لذلك فإن هيرموجينز يجد نفسه مجبراً على إعلان انسحاب سريع و في الحال. و في هذه المرحلة من المناظرة يبدو سقراط قد قام على نحو لا جدال فيه، بالبرهنة على أنه مهما كانت طبيعة العلاقة بين الشخص هيرموجينز والاسم هيرموجينز، أو بين الحصان وكلمة حصان، فإنه هناك أمر واحد واضح على الأقل: أنها علاقة لم يتم إرساؤها بوساطة أو استناداً إلى نعمة الأفعال الإرادية من أشخاص بأعيانهم. ولكن سيرز الآن السؤال: إذن، ما الذي يشرع هذه العلاقة؟ إن بقية المحاوره ستكرس لاستكشاف مختلف الاحتمالات.

أولاً، يقول سقراط، يجب أن نبحث في طبيعة الملائمة التي يتوقع أن تكون للاسم و لكي نبرهن ذلك يجب علينا أن نسأل عن الغرض الذي تؤديه الأسماء. وهو يحث هيرموجينز على الموافقة على أن:

"للأشياء واقع ثابت من نوع ما خاص بكل منها. إنه واقع لا علاقة له بنا ولسنا من كان سببا له. فهي (الأشياء: المترجم) لا تختلف أو تتأرجح من ناحية إلى أخرى بانسجام مع أهوائنا ولكنها توجد بذواتها في علاقة مع واقعها الخاص الذي فرضته الطبيعة."

كراتيلوس (ص ٣٨٦)

الأفعال كذلك صنف من أصناف الواقع:

« الأفعال أيضا يجري إنجازها استناداً إلى طبيعتها الخاصة، وليس استناداً إلى فكرتنا. »

كراتيلوس (ص ٣٨٧)

فمثلا لا نستطيع أن نقتطع قطعة خشب أو نحرقها ما لم نباشر العمل بانسجام مع طبيعة القطع و الحرق. فنحن سنفشل في اقتطاع أي شيء ما لم نستعمل آلة قطع حادة، كما أننا سنفشل في حرق أي شيء بسكب الماء عليه لأن مثل هذه الأفعال لا تنقرر على وفق الإرادة البشرية. لا بل أن الإرادة البشرية يجب أن تعمل على وفق، و استناداً إلى، طبيعة الفعل إذا ما رغبتنا في إنجازها بنجاح. ثم تأتي بعد ذلك الحركة الحاسمة في مناظرة سقراط. التكلم هو أيضاً فعل و الأسماء هي أدوات الكلام. إذن، فإن التكلم على نحو سليم يستلزم استعمال أدوات الكلام بطريقة سليمة

تماماً مثلما يكون الاستعمال السليم للأدوات الأخرى جوهرياً لأنماط الفعاليات المعينة التي صممت تلك الأدوات من أجلها.

كيف إذن تؤدي الأسماء عملها حين تستخدم بشكل صحيح في التكلم؟ إن وظيفة الأسماء، كما يزعم سقراط، هو أن تقوم بتقسيم و تفصيل الواقع لنا، وأن تميز أحد الأشياء عما سواه، وأحد الأشخاص عن غيره. فالاسم هيرموجينز هو ما يميز الفرد هيرموجينز عن الأفراد الآخرين. ويثير سقراط مقارنة خيالية بين فعاليتي التكلم والنسج. فهو يصف الاسم على أنه أداة تعلم و فعل الواقع كما يكون المكوك أداة فصل بين طبقات النسيج.

كراتيلوس (ص ٣٨٨)

و لكي يؤدي الاسم هذه الوظيفة يجب أن يعد لهذا الغرض على نحو صحيح و ذلك تماماً مثلما يجب أن يعد المكوك إعداداً صحيحاً لغرض النسج؛ فهو يجب أن يكون ذا شكل مناسب، و إلا فإنه لن يعمل. إن كفاءة المكوك كما هو حال أية أداة أخرى، تعتمد على هيأته وهنا بدأ سقراط بمهاجمة الفكرة الأساسية الثانية في نظرية هيرموجينز: أنه ليس مهماً أي اسم نعطيهِ للشخص، أو أن هذا الفرض، بالنسبة لسقراط، ليس طائشاً فقط بل هو فرض سخيف.

فاللغة التي نتحدث بها قد رسخت قبل أن نولد بزمن بعيد، ونحن لا نعرف من اخترعها كما لا يعرف النساج من هو الذي اخترع النول، ولكننا في كلتا الحالتين نستطيع إلى حد ما، أن نقرر ماذا كان في ذهن المخترع، وذلك بواسطة فحص تصميم الاختراع فحسب. ولأغراض سجالية، يقدم سقراط في هذا الموضع المخترع الخرافي للغة والذي يسميه ببساطة «صانع الأسماء»: (the name maker). و صانع الأسماء لا يختار الأسماء اختياريًا عشوائياً محضاً، مثله في ذلك مثل مخترع النول الذي لا يجمع عشوائياً مجموعة أشياء ثم يصنع منها ماكينة للنسيج. و بناءً عليه، فإذا أردنا أن نبحث في ملائمة الأسماء لمسمياتها يجب أن نحاول اكتشاف كيف صمم، أصلاً، صانع الأسماء تلك الأسماء. «لأنه يعرف كيف يجسد في الأصوات والمقاطع ذلك الاسم الذي جعل ليتلاءم بالطبيعة مع كل شيء»

كراتيلوس (ص ٣٨٩)

وقبل أن نتقدم أكثر، فإنه يجدر بنا أن نلاحظ كيف إن قياس التمثيل مع النسيج قد مكن سقراط أن يقدم بحركة واحدة عدداً من الأفكار المستقلة عن بعضها تماماً حول اللغة، و هي: (١) أن اللغة ذات هدف، (٢) و أن هدفها منعكس في تصميمها، (٣) و أن اللغة أمر تم

اختراعه، (٤) و أن أجزاءها تتناسب مع وظيفتها، (٥) و أنها لا تعمل إذا كانت خلاف ذلك، (٦) وأنه لكي يتاح لنا تشغيلها على نحو صحيح فإن ذلك يتطلب منا أن نفهم تصميمها. إن السلك الناظم في كل هذه الأفكار هو ذلك المستمد من الوظيفية (Functionality) التي يفترض أنها تستلزم العقلانية (Rationality).^[٦] وبالتضمن، فإن نظرية هيرموجينز في الأسماء مسبوكة في وظيفة النظرية التي تمثل اللغة بوصفها لا عقلانية و تصادفية و طارئة.

هذا هو السبب الذي جعل سقراط لا يحتاج إلى الرد مباشرة بالبينة والحجة النقطة التي أثارها هيرموجينز في أن أي سيد يمكن أن يغير اسم عبده، فالقياس التمثيلي مع النسيج ينقل المناظرة بكاملها إلى مستوى مختلف؛ و لسوف يكون من الخطأ أن نفترض أن سقراط يتوقع أن يتم تناول القياس التمثيلي حرفياً: فاللغة ليست نولاً و ليست اختراعاً مادياً من أي نوع، و لكن سقراط في الواقع يقول: إذا ما أردنا البحث في اللغة، فيجب علينا الافتراض أنها ذات طبيعة وظيفية. وخلاف ذلك فإنه ليس ثمة ما يوجب البحث فيه. وعلى نحو مشابه، فيما إذا لم نفترض أن النول ذو طبيعة وظيفية فإن السؤال لماذا وضع بهذا الشكل لن يكون ذا معنى. ولذلك فإن من المخالف للعقل أن نبدأ بنظرية مثل نظرية هيرموجينز لأن من شأن الزعم أن الأسماء يمكن أن يتم تغييرها عشوائياً و بوساطة نزوة فردية إنكار مسبق لوظيفية اللغة ببساطة. وذلك مما سيتركنا بدون أساس للبحث البتة.

إن الوظيفية، إذن، تعني ضمناً أن الشكل ليس تصادفياً، و لكنه قد صمم ليخدم غرضاً. ما الذي يجعل شكل اسم ما مناسباً لغرض ما أكثر من شكل اسم آخر؟ هذا هو ما سيأخذنا إلى الخطوة القادمة من مناظرة سقراط. إنها تقدم الفكرة القائلة أن الكلام يمثل أو يصور الواقع. و على ذلك فإن الاسم سيكون قد صمم على نحو حسن إلى الدرجة التي تجعله يمثل بصورة صحيحة ما يشير إليه. (وهذا يلزم بالضرورة من الفرض المسبق الأصلي القائل أن الكلام يتطلب وجود الأسماء حتى يمكن الفصل و التمييز بين أشياء الواقع المختلفة التي نرغب في الكلام حولها). فمثلاً، يقول سقراط، يخبرنا هوميروس أن ابن هيكتور كان معروفاً باسمين: أستيناكس وسكامانديوس. ولكن الأول هو الأكثر ملائمة من الاسم الأخير، لأن أستيناكس يعني (أمير المدينة) و هيكتور يعني المالك، و كلاهما اسمان مناسبان للملوك، لأن من طبيعة الملك أن يورث ملكية المدن التي يمارس الملك حكمه عليها إلى الابن الذي سيمارس حكمه عليها من بعد أبيه. ثم يتابع سقراط لإعطاء مثال على هذا المبدأ بمناقشة أسماء أخرى لأشخاص استعملها

هوميروس. بيد أن أسماء الأشخاص ليست أدلة موثوقة و ثابتة، لكونها تمنح من الأبوين اللذين هما نفسيهما عرضة للخطأ. لذلك فإن البحث يجب أن يجري توسيعه ليشمل كلمات إغريقية أخرى. يقول سقراط:

"الاحتمال الأكبر أن نجد الأسماء الملائمة في طبيعة ما هو خالد ومطلق، لأنه هناك يجب أن تعطى الأسماء بأعظم درجات الحرص، و ربما أن بعضها تمنحه قوة أسمى من تلك التي للإنسان".

كراتيلوس (ص ٣٩٧)

ثم تلي ذلك مناقشة طويلة و مفككة لأصول الكلمات. وفيها يختبر هيرموجينز براعة سقراط و ذلك بسؤاله أن يوضح معاني مختلف أنواع الكلمات و بعض أصول الكلمات التي تم تدقيقها كانت غير مقنعة إلى حد بعيد. فمثلا كلمة بطل (hero) قد جرى توضيح أصلها بربطها بآلة الحب (Eros)، على أن أساس البطولة في نتاج الحب بين الآلهة و البشر الفانيين. أما إلى أي مدى كان سقراط جادا في تعامله مع أصول المفردات التي اقترحها فذلك ليس واضحا بتاتا. فبعضها قد جرى تقديمه بجرأة قد تصل إلى حد القحة و في بعض الأمثلة الأخرى كان سقراط فقط يعيد التفسير التقليدي للاسم. ففي تفسير اسم أفروديت (Aphrodite) بوصفه اسما مناسباً للآلهة التي ولدت من الزبد (aphros) يورد ببساطة الرواية التي كان هيزيود قد قدمها سابقاً.

إن الاشتغال في البحث في أصول الألفاظ، كما يبدو، هو جانب آخر فقط من جوانب و لع الإغريق التقليدي باللعب بالألفاظ. فسقراط يذكر أحيانا أصول ألفاظ متضاربة، وهو لا يعرف كيف تختار أيا منها. و أثناء المناقشة يبدو واضحا أن الإغريقين في زمن أفلاطون كانوا مدركين تماما أن لفظ و تهجي اللغة الإغريقية قد تغير عبر القرون. و يظهر سقراط دائما و كأنه يفترض أن شكل الكلمة الأقدم هو أكثر ملائمة و صحة من الشكل اللاحق.

وكانت التفسيرات التي قدمت للتغيرات التي تمت ملاحظتها لا تعدو الإيحاء بأن التافظ قد تغير أحيانا لأسباب خاصة تتعلق بسهولة النطق. و قد كان سقراط مدركا أيضا أنه ليست كل الكلمات في الإغريقية هي ذات أصل إغريقي و هو يقر أن المعاني الأصلية لهذه الكلمات ينبغي تحريها بالرجوع إلى اللغة التي استعيرت منها.

وفي هذا الصدد فإن بحث سقراط في أصول الألفاظ لا يفتقر إلى النقد الذاتي فهو يلحظ أنه من السهولة بمكان أن يزعم المرء أن لفظة ما ذات أصل أجنبي حين يعجز المرء عن أن

يجد لها أصلاً إغريقياً واضحاً . وهو يلحظ أيضاً أن هناك حدوداً للاستشهاد بتغيير طريقة اللفظ لإسناد وتدعيم تعليل المرء التقليل من شأن عدم تناسب الأصوات الصحيحة وأصوات العلة:

"سقراط: ...أعتقد أن ذلك نوع من عمل أناس لا يأنهون قط بالحقيقة، و إنما يعنون فقط بأشكال أفواههم. لذلك فهم ما انفكوا يضيفون إلى الكلمات الأصلية حتى نصل في خاتمة المطاف إلى حالة لا يدرك فيها أي إنسان ما تعنيه أية كلمة في هذا العالم ... هيرموجينز: نعم، ذلك صحيح يا سقراط.

سقراط: و إذا ما سمح لنا أن ندخل أو نحذف ما يعجبنا من حروف في الكلمة، فإن من السهولة التامة جعل أي اسم يلائم أي شيء آخر."

كراتيلوس (ص. ٤١٤)

(إن سقراط يستبق، هنا، نقد فولتير الساحر لعلم أصول الألفاظ ، etymology، بوصفه علماً تساوي فيه الأصوات الصحيحة شيئاً قليلاً بينما لا تساوي أصوات العلة شيئاً على الإطلاق).

وفي هذا الوقت ربما بدأ القارئ يشك في أن البراعة نفسها التي ينتج فيها سقراط توضيحات تأصيلية لمعاني الألفاظ إنما هي مقصودة بوصفها دليلاً غير مباشر لأطروحاته الخاصة، و أن هيرموجينز، سيئ الحظ لكنه كان يقاد من أنفه. و سقراط نفسه يكاد يقترب من الاعتراف بهذا وفي خاتمة المطاف إذ يسلم بان مثل هذه التوضيحات تصل إلى نهاية ما. إن الباحث في أصول الألفاظ يجب أن يتخلى عن بحثه الذي يجب أن تحل مكانه طريقة بحث أخرى.

"سقراط: والآن في أية نقطة سيكون على صواب فيقلع عندها، و يتوقف؟ أليست هي عندما يصل إلى الأسماء التي هي عناصر لأسماء وكلمات أخرى؟ ولهذا إذا كانت هي العناصر، لم تعد تظهر على نحو صحيح على أنها مؤلفة من أسماء أخرى.. فإذا ما توصلنا إلى كلمة هي ليست مؤلفة من كلمات أخرى، فإننا سنكون على صواب في قولنا أننا قد توصلنا إلى عنصر في الأقل وأننا لا يجب أن نشير إلى كلمات أخرى لغرض اشتقاقها.^[٧]

هيرموجينز: اعتقد أنك على صواب .

سقراط: إذن، هل أن الكلمات التي تسأل عنها الآن هي عناصر وأنا يجب، و منذ الآن، أن نبحث في صحتها بطريقة أخرى؟"

كراتيلوس (ص ٤٢٢)

وعلى هذا النحو يكون هيرموجينز الذي عانى طويلاً قد توصل أخيراً إلى الموافقة على أننا لا نستطيع أن نأمل بتوضيح صحة الكلمات بواسطة الإشارة إلى كلمات أخرى فحسب. ففي نهاية الأمر فإن مثل هذا التوضيح سيكون دوران في حلقة مفرغة، فضلاً عن كونه لن يكون متوافقاً مع العلاقة بين الاسم والواقع المادي للشيء المسمى. إذن، يجب أن نبحث عن مبدأ توضيحي إضافي و هو مبدأ لا يفترض مسبقاً ارتباطات بين كلمة وكلمات أخرى. ولكن ماذا يمكن أن يكون مثل هذا المبدأ؟

"سقراط: حسناً إذن، كيف أمكن للأسماء الأكثر قدماً التي لم تبين بعد على أية أسماء أخرى، كيف يمكن لها أن توضح لنا طبيعة الأشياء على النحو الذي كان فيه ذلك حكماً، والذي يجب أن ننجزه إذا ما كانت تلك أسماء البتة. أجب عن سؤالي هذا: إذا لم تكن تملك صوتاً أو لساناً ورغبنا أن نوضح الأشياء لبعضنا ألا يجب علينا أن نحاول كما يحاول البكم فعلياً، عمل إشارات بأيدينا ورؤوسنا وجسمنا عامة؟

هيرموجينز: نعم، أتوجد ثمة طريقة أخرى، يا سقراط؟

سقراط: إذا ما رغبنا أن نسمي ذلك الأمر السامي واللطيف، فيجب كما أتصور، أن نرفع أيدينا نحو السماء في تقليد لطبيعة الشيء الذي نبحث فيه، و لكن إذا ما كانت الأشياء التي يجب أن نسميها هي هابطة وثقيلة، فيجب أن تهبط أيدينا باتجاه الأرض، وإذا ما رغبنا في أن نذكر وضع حصان وهو يعدو خبياً أو أي حيوان آخر، فيجب طبعاً، أن نجعل مواقفنا البدنية على أكبر قدر مستطاع من المماثلة مع وضعها نفسه. هيرموجينز: نعم.

سقراط: حين نرغب في التعبير عن أي شيء بالصوت أو باللسان أو الفم، أليس تعبيرنا بهذه الوسائل يمكن أن يتم في أية حالة معينة حينما يكون تقليد شيء ما قد أنجز بوساطتها؟

هيرموجينز: أعتقد أن ذلك أمر محتوم.

سقراط: فالاسم، إذن، كما يبدو إنما هو تقليد صوتي لما يراد تقليده، والشخص الذي يقلد بصوته إنما يسمى ذلك الشيء الذي يقلده."

كراتيلوس (ص ٤٢٢)

و على أية حال، فإن ما يقصد بتقليد الأسماء، كما يقول سقراط، لا يعني ترجيع صدى نداءات الحيوانات و الطيور، و إنما شيء مختلف تماماً . فالمقصود هو تمثيل للطبيعة الجوهرية لكل شيء بوساطة الربط بين أصوات مناسبة. وكما يفعل الرسامون حين يرغبون في إنتاج تقليد شيء ما، فإنهم يستعملون أحياناً الأحمر فقط، وأحياناً لوناً آخر، وأحياناً يخلطون عدة ألوان كما يفعلون عندما يقومون بعمل صورة لرجل أو شيء ما، مستخدمين كل لون، كما أفترض، وفقاً لما تتطلبه الصورة المعينة. هكذا نحن نفعل ذلك و بالطريقة نفسها أيضاً، يمكن أن نطبق الحروف على الأشياء مستعملين حرفاً واحداً لشيء واحد، عندما يبدو ذلك مطلوباً أو حرفاً عدة معاً لتشكل مقاطع، كما تسمى، كما أن ذلك يليه ربط المقاطع.

كراتيلوس (ص ٤٢٤)

بيدي سقراط بعد ذلك ملاحظات حول التحليل التأملي للأسماء الإغريقية لغرض اختبار الفرضية القائلة بأن تركيبها مبني على مبادئ المحاكاة والتقليد. وفي دفاعه عن هذا المنحى يقول:

"يخيل إلي أن الأمر سيدعو للسخرية إذا قلنا بأن الأشياء يتم إظهارها من خلال التقليد بالحروف والمقاطع، على الرغم من أنه لا يمكن أن يكون غير ذلك لأنه لا توجد نظرية أفضل يمكن أن نؤسس عليها حقيقة الأسماء الموهلة في القدم، ما لم نعتقد أنه من الأفضل لنا أن نتبع مثال الشعراء المأساويين الذين عندما يقعون في مأزق يلجئون إلى إدخال الآلهة على آلة إلى المسرح.^[٨] وبذلك يمكن أن نخرج من المشكلة بالقول أن الآلهة هي التي منحت الأسماء المغرقة في القدم ولذلك فهذه الأسماء صحيحة. أتلك هي أفضل نظرية لدينا؟ أم هذه التي ترى أننا حصلنا على الأسماء من شعب أجنبي وأن الأجانب هم أكثر إيغالاً في القدم منا؟ أو تلك التي ترى إن من الممكن أن نبحث في الأسماء بسبب من قدمها كما هي الحالة مع الكلمات الأجنبية؟ كل هذه ليست سوى معاذير لبقعة جدا من جانب أولئك الذين يرفضون أية نظرية عقلية لصواب الأسماء الموهلة في القدم وصحتها."

كراتيلوس (ص ٤٢٥)

و يبدأ سقراط تحليله بالصوت الصامت /r/ الذي يعده أداة معبرة عن كل حركة، فيشير إلى أنه يقع في كلمات إغريقية تعني: "تدفق"، و "تيار"، و "اهتزاز"، و "ركض" ... الخ. و السبب في هذا التلاؤم، يقول سقراط ، هو أن اللسان يكون في أقل حالات الاستقرار وأكثر حالات القلقة عندما يلفظ هذا الحرف. أما الصوتان الصامتان /d/ و /t/ من جهة ثانية، و بسبب الضغط والتشديد على اللسان فإنهما يتلاءمان طبيعياً كمحاكاة لفكرة الربط والراحة، و في حالة الحرف الصامت /l/ تكون حركة اللسان انزلاقية سلسلة. و هذا الحرف الصامت موجود في كلمات إغريقية تعني: "الانزلاق"، و "مستوى"، و "نعومة"، و "ملامسة"، ... الخ . كما أن الصوت الصائت (الحركة) /o/ يتلاءم مع التعبير عن الاستدارة وهكذا. و على هذا النحو، يفترض سقراط أن مانح الاسم يقوم أصلاً بعمل اسم لكل شيء بواسطة الحروف و المقاطع، و من هذه الأسماء يقوم بتركيب كل ما تبقى من أسماء بالمحاكاة. وهذا كما يبدو، لي يا هيرموجينز، هو ما يشكل نظرية صحة الأسماء..

كراتيلوس (ص ٤٢٧)

وفي الصوغ النهائي، ستكون لدينا نظرية من مرحلتين. الأساسية تبنى فيها الأسماء بواسطة عملية محاكاة و عبر ترابط الأصوات الذي يحتذي ويمائل الطبيعة الأساسية للشيء المسمى وهذه العملية قد بنيت على أساس من الملفوظات الفسلجية للأصوات المفردة موضع البحث. و حالما تستقر هذه الأسماء الأولية فإن الذخيرة تتوسع بعد ذلك بواسطة ربطها في مركبات ذات معنى استناداً إلى معانيها الأولية.

و بعد أن يقدم توضيحاً لهذه النظرية في هذا المخطط الأولي، ينطلق سقراط في الحال لاختبارها. و عند هذه النقطة من بناء المحاوره يستبدل هيرموجينز بكراتيلوس بصفته المحاور الأساسي لسقراط. و تعود المحاوره إلى رأي كراتيلوس الذي دافع عنه أصلاً و القائل بان مناداة هيرموجينز باسمه أمر يفتقر إلى الصواب، و يبدأ سقراط مرة أخرى بالمناقشة التي تتبع من ضرورة التمييز و التفريق بين الحقيقة والزيغ:

"سقراط: ماذا عن اسم صديقنا هيرموجينز الذي ذكر قبل قليل، أيجب أن نقول انه ليس اسمه على الإطلاق، ما لم يكن هو من جنس الهرامسة، أو أنه اسمه ولكنه غير صحيح؟"

كراتيلوس: أعتقد يا سقراط أنه ليس اسمه على الإطلاق، يبدو أنه اسمه، ولكنه حقا اسم شخص آخر يمتلك الطبيعة التي تجعل الاسم كاملاً غير منقوص.
سقراط: وحين يقول شخص أن صديقنا هو هيرموجينز أليس يقول أمراً يصل حد البهتان؟ لأن من المحتمل ألا يكون ممكناً القول أنه هو هيرموجينز إذا لم يكن كذلك.

كراتيلوس: ماذا تعني؟

سقراط: أتقصد القول أنه ليس ممكناً الكلام بالبهتان قط؟ لأن هنالك ، يا صديقي كراتيلوس العزيز ، الكثير ممن يقومون بذلك و الذين فعلوا ذلك في الماضي.
كراتيلوس: لماذا يا سقراط، وكيف نفترض أن بإمكان أي شخص أن يقول ما يقول وتقول أنه ليس كذلك؟ أوليس البهتان و الكذب هو القول بغير ما هو كائن؟
سقراط: إن حجاجك العقلي هو أكثر ذكاء من أن احتمله في عمري هذا، يا صديقي، و مع ذلك أخبرني بالآتي: أعتقد أن من الممكن أن يتحدث المرء بالكذب ولكن دون أن ينطق به؟

كراتيلوس: لا الكلام بالكذب ولا الزعم به ولا القول (بالبهتان) .
سقراط: ولا لفظه أو استعماله بوصفه صيغة للخطاب؟ فمثلاً ، إذا ما التقى بك شخص بأسلوب مضياف، وأمسك يدك وقال: مرحباً بك يا صديقي من أئينا، كراتيلوس و ابن سميكريون.^[9] أيمن أن يكون قد قال هذه الكلمات أو لفظها أو وجهها ليس لك ولكن إلى هيرموجنز أو ليس لأي أحد آخر؟

كراتيلوس: أعتقد يا سقراط أن الرجل قد كان ينتج أصواتاً دون معنى سقراط: وحتى هذا الجواب مرحب به، لأنني يمكن أن أسأل فيما إذا كانت الكلمات التي أحدثها صادقة أو كاذبة، أو هي صادقة جزئياً وكاذبة جزئياً ، حتى هذا سيكون كافياً.

كراتيلوس: ينبغي أن أقول إن الرجل في هذه الحالة قد كان يحدث ضجة، ويقوم بذلك بوساطة حركات لا غاية لها كما لو أنه كان يطرق على قدر من البرونز.

كراتيلوس (ص ٤٢٩-٤٣٠)

ولكن سقراط لا يرضى بهذا الجواب، ويلاحق المسألة بالتوسع في القياس باللغة و الرسم (التصوير) تماماً كما يمكن إن نخطئ في نسبة صورة شخصية إلى فرد ما، السبب من كونها مشابهة حقيقة لشخص آخر، كذلك يمكن أن نرتكب خطأ في نسبة اسم ما. إن النسبة الصحيحة في كلتا الحالتين هي في أن يعزى لأي شيء ما يمكن أن يكون عائداً له و يماثله:

"سقراط: أنا أدعو ذلك النوع من النسبة في كلا النوعين من المحاكاة بوساطة الصور والأسماء صحيحاً، و في حالة الأسماء فإنه ليس صحيحاً فحسب بل حقيقي، وأما النوع الثاني الذي يعطي ويطبق محاكاة غير مماثلة فأني ادعوه غير صحيح، و في حالة الأسماء، كاذب و زائف.

كراتيلوس: ولكن يا سقراط، قد يكون أن تلك النسبة غير الصحيحة ممكنة في حالة التصوير، و ليس في حالة الأسماء التي يجب أن تنسب دائماً على نحو صحيح. سقراط: ماذا تعني؟ ما الاختلاف بين الاثنين؟ ألا أستطيع أن أتقدم نحوه و أقول له هذه صورتك الشخصية و اريه ربما شبيهه أو ربما صورة لامرأة؟ وأعني بكلمة أريه أن أضع أمام ناظره.

كراتيلوس: بالتأكيد.

سقراط: حسناً إذن، ألا أستطيع أن أتقدم إلى الرجل نفسه مرة أخرى وأقول له، (هذا هو اسمك.)؟ الاسم محاكاة، هو الحال بالنسبة للصورة. حسناً جداً، ألا أستطيع أن أقول له: هذا هو اسمك. ثم بعد ذلك أضع أمام حاسة سمعه ما يمكن أن يكون محاكاة له زاعماً أنه رجل، أو ربما محاكاة لأنثى من البشر، زاعماً أنها امرأة؟

(ص ٤٣٠-٤٣١)

إن هذه المناقشة تكبح شكوك كراتيلوس فيسلم بأن سقراط على صواب، و في الحال يتابع سقراط عملية القياس. إن بعض صور الأشخاص أفضل من سواها والشيء ذاته يفترض أن يكون صادقاً في حالة الأسماء.

"سقراط: فإذا ما قارنا، تبعاً لذلك، الأسماء الأقدم بتخطيطات الصور الأصلية، فهذا أمر ممكن في الكلمات كما في الصور، لإعادة إنتاج جميع الألوان و الأشكال

أو ليس جميعها، قد يكون بعضها يتطلب وبعضها يضاف، وربما تكون مفرطة في العدد أو في الضخامة ، أليس ذلك صادقا ؟

كراتيلوس: نعم إنه كذلك.

سقراط: إذن، فإن الشخص الذي يعيد إنتاجها كلها، ينتج مخططات وصوراً جديدة، أما الشخص الذي يضيف أو يحذف فإنه ينتج أيضاً مخططات وصوراً، ولكن من نوعية سيئة.

كراتيلوس: نعم.

سقراط: و ماذا عن ذلك الذي يحاكي طبيعة الأشياء بوساطة الحروف والمقاطع؟ فوفقاً للمبدأ نفسه، إذا ما أعطى كل ما هو ملائم، فإن الصورة المتخيلة بكلمات أخرى، الاسم، ستكون جيدة، وإذا ما حذف قليلاً بعض الأحيان، فإن النتيجة ستكون صورة متخيلة، ولكن ليست جيدة، و لذلك فإن بعض الأسماء حسن والبعض الآخر قد أعد إعداداً سيئاً . أليس ذلك صادقا ؟

كراتيلوس (ص ٤٣١)

ومع ذلك فإن كراتيلوس نزاع إلى الشك في الأمر. و يجادل بأن التهجي الصحيح ليس مسألة تقريبية لأن هناك طريقة واحدة فقط لتهجي اسم ما على نحو صحيح.

"كراتيلوس: و لكن كما ترى يا سقراط، فحينما ننسب، استناداً إلى علم النحو، هذه الحروف ألفا، باء، والبقية،^[١٠] إلى الأسماء، وإذا ما أقصينا أو أقمنا أي حرف فإن ذلك لا يعني إن الاسم قد كتب مطلقاً ، و لكنه سيغدو في الحال كلمة أخرى إذا ما حصل فيه شيء من ذلك.

سقراط: ربما لسنا ندرس المسألة بطريقة صائبة.

كراتيلوس: لم لا؟

سقراط: قد يكون ما تزعمه صادقا بالنسبة لتلك الأشياء التي يجب أن تتألف من عدد معين، أو قد توقفت عن أن تكون، كما في العدد عشرة أو أي رقم تحب، فإذا ما أضفت أو طرحت أي شيء، فإن الناتج هو عدد آخر؛ و لكن ذلك ليس هو نمط الصواب الذي ينطبق على النوعية أو على الصور المتخيلة عموماً، وعلى العكس، فإن الصورة المتخيلة لا يجب في كل الأحوال أن تعيد إنتاج خصائص كل ما

تحاكيه، إذا ما كان لها أن تكون صورة. تحقق من كوني لست صائباً . أيمن أن يكون هناك شيئان، كراتيلوس و صورة كراتيلوس، فإذا لم يتوجب على مبدع ما أن يحاكي اللون والشكل كما يفعل المصورون، ولكن يجب أن يصنع كل الأجزاء الداخلية المشابهة لما لديك من أجزاء داخلية، ويجب أن يعيد إنتاج المرونة و الحيوية والدف نفسيهما، و يجب أن يخلق فيهما الانفعال، و الحياة و العقل، كما هو موجود لديك. و باختصار يجب أن يضع إلى جانبك، نسخة مكررة من كل الخصائص والسجايا؟ أفيكون هنالك في مثل هذه الحادثة كراتيلوس و صورة كراتيلوس واحد أم أثنان؟

كراتيلوس: يجب أن أقول ، يا سقراط، إن هناك كراتيلوسين.

سقراط: و إذن، ألا ترى يا صديقي إننا يجب أن نبحث عن مبدأ آخر للصواب، في الصور المتخيلة و الأسماء، ذلك المبدأ الذي كنا نتحدث فيه، ولا يجب أن نصر أنها لم تعد بعد صوراً إذا ما أعوزها شيء و أضيف عليها شيء آخر؟

كراتيلوس (ص ٢-٤٣١)

إن المشكلة هي أننا حالما نسمح بدرجات من المماثلة، سواء في الأسماء أو في الصور، سيغدو من غير الواضح أية معايير للتشابه يجب أن تطبق في أحوال معينة. و الأسوأ من ذلك أننا يجب أن نعرف بوجود عدم التشابه بين المادة التي هي تمثيل و ما تمثله. فمثلاً ، إذا كان الحرف الصحيح /r/ يمثل حركة منزلقة فإن من الممكن الافتراض أنه ليس له من وظيفة ملحوظة في الكلمة الإغريقية التي تعني " صلب " (Skleron) ومع ذلك فإن له مثل هذه الوظيفة.

سقراط: و مع ذلك ألا نفهم بعضنا بعضاً حينما يقول أي منا كلمة (Skleron)

مستعملاً التلفظ الحالي أو لا تعرف الآن ما أعني؟

كراتيلوس: نعم . ولكن ذلك بحكم العادة يا صديقي.

سقراط: بقولك (العادة) (costom) هل تعتقد أنك تقول شيئاً مختلفاً عن العرف

(Convention)؟ إلا تعني بقولك العرف أنه عندما أتكلم فإن لدي معنى محدداً و

أنت تدرك أن لدي ذلك المعنى؟

كراتيلوس (ص ٤٣٤)

في اللحظة التي يدعن فيها كراتيلوس لهذا فإنه من ناحية أخرى يبدو قد أخضع إلى النظرية الاتفاقية للأسماء بالدرجة نفسها التي كان عليها هيرموجينز. وفي الحال يدفع سقراط النقطة نحو الإقناع بأن يبرهن أنه من الصعب في كثير من الحالات أن نرى كيف يمكن للمشابهة أن تجسد في الأصوات.

"سقراط: لأنه، يا صديقي، إذا ما حصرت انتباهك بالأرقام فأين في اعتقادك بإمكانك أن تتحقق من تطابق الأسماء مع كل رقم مفرد اعتماداً على مبدأ المشابهة، ما لم تسمح بالاتفاق والعرف من جانبك لكي تستوثق من صحة الأسماء؟ أنا نفسي أفضل النظرية القائلة بأن الأسماء، في أفضل حالاتها الممكنة، تشبه الأشياء التي تسميها. و لكن ، أحقا أن هذه القوة الفاتنة للمشابهة، كما يزعم هيرموجينز، شيء بئس ونحن مرغمون لاستعمال العرف فضلاً عن هذه الذريعة الشائعة و ذلك لنرسخ ونبرهن صحة الأسماء؟ ربما تكون اللغة، في حدود الممكن ، ممتازة على نحو لا نظير له حينما تكون كل حدودها و مصطلحاتها، أو أكبر عدد ممكن منها، قد بنيت على المشابهة. و هذا ما يمكن أن يوصف بأنها ملائمة، و هي ملائمة في أقصى حالات النقص حينما تكون في ظروف مضادة."

كراتيلوس (ص ٤٣٥)

إن الموضوع الأخير الذي تمت مناقشته في هذه المحاورة هو فيما إذا كان، في نطاق وجهات النظر المتشكلة هذه، من الراجح أن نفترض أن الاسم هو دليل معتمد لطبيعة الشيء المسمى. ويبرهن سقراط أننا لا نستطيع أن نسلم جدلاً أن الواهب الأول للاسم قد كان دائماً على صواب في فهمه للعالم.

"سقراط: فإذا ما افترضنا أن واهب الاسم قد أخطأ في مبتدأ الأمر، وهو بذلك سيكون أجبر كل الأسماء الأخرى أن تكون في سياق توافق مع خطأه الابتدائي. فليس ثمة من أمر مستغرب في ذلك. فالحال هو كذلك تماماً في بعض الأشكال الهندسية، فالخطأ الابتدائي أمر هين، و لا يمكن ملاحظته ولكن الاستدلالات العديدة ستكون خاطئة رغم توافقها."

كراتيلوس (ص ٤٣٦)

و فضلاً عن ذلك، فإننا لا نفترض أن البحث في الأسماء هو المدخل الوحيد لاكتشاف طبيعة الواقع: لأن الذي منح الاسم أصلاً، في أقل تقدير، لا بد أنه قد استعمل طريقة أخرى بما أنه لم تكن لديه أسماء مسبقة توجهه، وهذه الطريقة البديلة ليست سوى البحث المباشر في الأشياء نفسها.

"سقراط: و إذن، أيجوز الافتراض أن الأمر سيكون صادقاً حقاً كون الأشياء يمكن أن تعرف إما بوساطة الأسماء، أو من خلال كينونتها هي التي تمثل طريقة أفضل وأكثر موثوقية لمعرفةها؟ أن نتعلم من الصورة سواء أكانت بذاتها محاكاة جيدة أو لا، و أن نتعلم أيضاً الحقيقة التي تحاكيها هذه الصورة، أو أن نتعلم من الحقيقة نفسها كذلك فيما إذا كانت الصورة قد أنجزت على نحو سليم؟ كراتيلوس: أعتقد أن من المؤكد أفضلية التعلم من الحقيقة.

كراتيلوس (ص ٤٣٩)

لقد أصابت الحيرة كثير من المعلقين و الشراح الذين تصدوا لهذه المحاورة لكونها غير قابلة لأن توضع في مكان بعينه في منظومة أعمال أفلاطون الفلسفية الشاملة، و لصعوبة ما تهدف إليه مناقشاتها المتذبذبة. ذلك أنه في نهاية المطاف لا يتم إثبات أي من النظريتين اللتين قدمهما كل من كراتيلوس و هيرموجينز، كما أن الحل الوسط النهائي لا يكاد يرقى إلى درجة أن يكون مقصوداً بوصفه جواباً مقنعاً للمسألة الأصلية.

وعلى أية حال فإنه سيكون من الخطأ أن نعامل محاورة (كراتيلوس) بوصفها عملاً صغيراً أو تمهيداً لم ينجز فيه أفلاطون صياغة وجهات نظره حول اللغة بعد. إن مقاومة سقراط الرائعة الجلية للانصياع أما إلى جانب وجهة كراتيلوس أو وجهة نظر هيرموجينز ستكون هي مفتاحنا الأمثل لمقاصد أفلاطون. و يجب أن لا ننسى أنه طوال محاولات أفلاطون كان سقراط بشكل دائماً في معارك كلامية مع السوفسطائيين،^[١١] أولئك المتحدثون اللبقون في العالم الإغريقي القديم، وهو معني بشكل خاص بفحص و تكذيب وجهة النظر السوفسطائية التي ترتبط خصوصاً ببروتاجوراس والقائلة بأن الصدق و الحقيقة وهم. وبحث سقراط ليس سوى سعي لا يلبس بلوغ الحقيقة بوساطة السؤال و الجواب: فإذا كانت الحقيقة وهماً فإن هذا البحث سيكون عديم الفائدة.

لقد قدم السوفسطائيون برنامجاً تعليمياً مختلفاً تماماً في روحه وهدفه عن برنامج سقراط. و هو البرنامج الذي أسهمت جوانب عديدة منه في إنجاز الوظائف التي طورت لاحقاً في الجامعات في أوروبا منذ القرون الوسطى و حتى العصر الحديث، فالذين يحضرون محاضرات السوفسطائيين قد كانوا يبحثون أساساً عن تدريب يمكن أن ينهض بهم وينفعهم في الحياة العامة، وفي اليونان التي عاش فيها أفلاطون، فإن المفتاح لمثل هذا يكمن في مهارات الحديث إلى الجماهير.

إن موقف أفلاطون الأساسي تجاه السوفسطائيين يجب أن يوضع في سياق وجهات نظرة سياسي. إن المؤسستين المدينتين الرئيسيتين في دولة المدينة الديمقراطية، و هما الجمعية و المحاكم القانونية، قد كانتا كلاهما مؤسستين يعتمد النجاح فيهما على الإقناع الكلامي، وبهذا المعنى، بدت الديمقراطية لأفلاطون بوصفها نظاماً يضع الإجماع فوق الموضوعية و النزاهة العقلية. إن موت سقراط قد كان درساً فلسفياً لم ينسه أفلاطون قط. إن محاكمة وإدانة سقراط مثلت بالنسبة لأفلاطون الوجه غير المقبول للديمقراطية، و لقيمتها وهي قد مثلت أيضاً الديمقراطية على حقيقتها.

إن اللغة تبعاً لذلك، قد كانت ذات أهمية في فلسفة أفلاطون لسبب شامل ومهم. فإذا كانت عقيدة بروتاجوراس صائبة، فإن موت سقراط هو تضحية عبثية. إن البحث اللفظي بالكاد يستطيع أن يزعم لنفسه أنه يوصل للحقيقة إذا كانت الحقيقة وهما. وأفضل شيء يمكن أن يأمل المرء تحقيقه هو أن يقنع الآخرين بقبول رأيه الخاص. و هذا هو الارتباط و الدفاع و التسوية النهائي للمذهب السوفسطائي و الديمقراطية في آن واحد. لذلك صار مهماً بالنسبة لأفلاطون أن يوضح أن اللغة - وهي الأداة الجوهرية التي يدير السوفسطائيون و السياسيون و الديمقراطيون شؤونهم بواسطتها - نفسها تتطلب منا أن ندرك أن الحقيقة بوصفها شيئاً مستقلاً و ليس وهمياً. و هذه هي القضية الأساسية في كراتيلوس.

عندما يتخذ هيرموجينز موقفه المتفرد المتصلب حول صحة الأسماء، فإن سقراط لا يعارضه بالطريقة التي ربما توقعناها، بمعنى أنه لم يقل له إن القرار يعود إلى الجماعة اللغوية، و ليس للفرد أن يقرر بم يمكن أن تسمى الأشياء. إن ذلك سيكون أن يتصرف بطريقة تخدم خصومه السوفسطائيين الذين يعدون الإجماع أعلى شكل من الأشكال التنظيمية يمكن للإنسان أن يعظمه (كما يزعم الديمقراطيون) و يعارض سقراط فردية هيرموجينز بوجهة النظر الواقعية

للغة؛ الأسماء هي إجابات ملائمة للواقع وليس للجماعة. و لكن وبالطريقة نفسها، و حين قدم كراتيلوس وجهة النظر القائلة أن الأسماء تمتلك صحة متأصلة فيها، فإن سقراط يرد بالقول أن من يعطون الاسم، كائناً من يكونون، ربما يكونون على خطأ صريح في الأسباب التي تجعلهم ينسبون أي اسم محدد. وعلى هذا النحو فإن المدى الذي يعبر فيه الاسم عن حكم ما، هذا الحكم ملائم للواقع وليس للجماعة.

إن اللغة، كما كانت تبدو لأفلاطون، هي الضمان لوجوب أن تتحقق الحقيقة، و أن توضع في منزلة أعلى من الموافقة المعبرة عن الإجماع. وإذا كان الأمر خلاف ذلك، فلن يكون هنالك شيء لنوافق أو لا نوافق عليه، وستكون جهودنا لإقناع الآخرين ذات معنى فقط بوصفها محاولات للخداع، أو للإرهاب بالعبوس والتقطيب أو الاستناد على من هم أضعف منا. إن غاية أفلاطون هي أيضاً أنه لا يهم إن كانت اللغة اعتباطية أو متسمة بالمحاكاة والتقليد، أو إلى أي مدى هي مزيج من هذين الأولين. فما دام هذان الرأيان هما الاحتمالان الوحيدان الذان يمكن لنا تصورهما فإننا مسوقون، في النهاية، إلى إدراك إن اللغة تصل إليهما معا وبما يتجاوز آراءنا ويتجاوزها نفسها. وإلا فإننا نتخلى عن، وننكر، الحجاج العقلي برمته (كما يفعل كراتيلوس

إلى أي مدى يمكن أن تصل اللغة؟ ليس هنالك جواب يعطى لهذا في كراتيلوس. إنما هو يعطى في عقيدة أفلاطون شبه الصوفية حول الأشكال أو الصور (Forms) والأفكار أو المثل (Ideas). (كونفورد ١٩٣٥)

إن الأشياء والخصائص التي نتحسسها، أو نعتقد إننا نتحسسها، في هذا العالم، إنما هي مجرد نسخ يعوزها الكمال مقارنة مع يوافقها من صور و مثل. و هذه الأخيرة إنما هي العوالم السرمدية التي تمنح وجودها الأساس النهائي لكل المعرفة البشرية. و اللغة تربطنا عبر الأعراف من هذا الواقع المطلق إلى انعكاسه الغامض الذي هو العالم اليومي المألوف الذي يحيا فيه البشر الفانون.

ترجمة للفصل الأول من كتاب:

“Land Marks in Linguistic Thought: The Western Tradition from Socrates to Saussure” (1989)By: Roy Harris and Talbot J. Taylor. Routledge and kegan .London.

إشارات و ملاحظات المترجم:

يقتضي التنويه بأن ملاحظات المترجم قد أشير إليها بأرقام عربية محصورة بين معقوفتين []
تميزا لها عن أية ملاحظات للمؤلفين.

[١] كان تشارلز ديكنز يستعمل أسماء بدلالات مهينة، فهو مثلاً ، يطلق أسم يوريا هيب، التي
تعني كومة البول، على شخصية مكروهة من شخصيات رواية (آمال كبيرة).

[٢] لا تتوافق أسماء العلم و دلالاتها مع مسمياتها؛ فمثلا في العربية قد نسمي شخصا " خالدا " و
نحن نعلم إنه إنسان فان؛ و قد نسمي امرأة هيفاء وهي بدينة. أما الأسماء العامة فإنه يفترض أن
تكون لها معان محددة ما لم يمنع السياق من إرادة ذلك المعنى.

[٣] يناقش المؤلفان دلالة اسم هيرموجينز مستنديين في ذلك إلى المهاد الفكري و الاجتماعي
للثقافة الإغريقية القديمة لإظهار تهافت القول بملائمة الاسم لمسامه. و هذا لا يعني أنهما يعتقدان
بصحة المحتوى الأسطوري و الميثولوجي لهذه الثقافة.

[٤] من الواضح أن هذا الرأي يعبر عن توقع منطقي لأن بعض معاني الأسماء، و ليس جميعها،
لا تتوافق مع مسمياتها.

[٥] في هذا الموضوع، يتضمن دفاع سقراط توكيدا غير مباشر لفكرة كون اللغة مؤسسة
اجتماعية تتجاوز الأفراد و الجماعات المستعملة لها. وهي تكتسب قدرتها الاتصالية من وجودها
الموضوعي و ليس مما ننسبه إليها من معان. ولعلنا نعثر هنا على جذر فكرة دي سوسور حول
اللغة بوصفها مؤسسة اجتماعية.

[٦] الوظيفية و العقلانية اتجاهاً في علم اللغة الحديث. و تمثل الاتجاه الأول مدرسة براغ و
المدرسة البريطانية كما في أعمال فيرث و كذلك في أعمال تشومسكي.

[٧] يكاد سقراط، في هذا الموضوع من مناظرته، أن يتوصل إلى الفكرة الأساسية لعلم الصرف
"morphology"؛ فكون الكلمة يمكن أن تحلل إلى مقاطع أخرى لها معان تحتوي على الفكرة
الجوهرية هي فكرة مهمة و أساسية في علم الصرف.

[٨] يشير سقراط إلى حيلة فنية كان المسرحيون الإغريقيون يلجأون إليها، و ذلك بإنزال شخصيات تمثل الآلهة على خشبة المسرح بوساطة آلات، و ذلك لكي تتدخل و تحل المأزق الدرامي الذي تعالجه المسرحية.

[٩] ورد أسم هيرموجينز في النص الأصلي؛ غير أن المعنى لا يستقيم إلا باستبداله باسم كراتيلوس.

[١٠] يورد كراتيلوس أمثلة من الحروف الأولى من الألف باء الإغريقي القديم و هي ألفا و بيتا، و لكننا آثرنا ذكر الحروف الهجائية العربية انسجاما مع ثقافة اللغة المنقول إليها.

[١١] السوفسطائيون مجموعة من الفلاسفة الإغريق الذي سبقوا سقراط. و كانوا يعتقدون كثيراً بالنقاشات التي تظهر أن ليس للحقيقة وجود موضوعي. و قد أسهموا في تطوير الأسلوب الحوارى في الحجاج الفكرى. و هم يولون الجانب الاجتماعى للفكر أهمية خاصة حتى أن البعض من دارسى الفلسفة يعدهم فئة مظلومة من الفلاسفة. و يعد سقراط ، في نظر البعض، آخر فيلسوف سوفسطائى كبير.